جامعة المنصورة
كليـة الآداب

مظاهر الثقافة في شعر حافظ إبراهيم
(دراسة موضوعية فنية

إعـــداد
الدكتوره / جواهر بنت عبد الله العصيمي
استاذ مساعد بقسم اللغة العربية
كلية العلوم والآداب بالمندق – جامعة الباحة

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الثالث و الستون – أغسطس ٢٠١٨

مظاهر الثقافة في شعر حافظ إبراهيم
(دراسة موضوعية فنية)

د/ جواهر بنت عبد الله العصيمي

ملخص البحث:

إن حركة الطباعة والنشر وتأسيس دار الكتب المصرية ومجمع اللغة وظهور حركات الإصلاح وقع على عاتقها مسئولية بعث مشاعر الهوية العربية، وقد كان حافظ إبراهيم شاعر النيل والشعب، ومن أبرز رواد مدرسة البعث والتجديد، وهذا هو سبب اختياري لدراسة هذا الموضوع، وإن أهمية هذا البحث تكمن في المكانة التي يتبوءها حافظ إبراهيم في الشعر العربي، وفي محاولة الكشف عن جانب الثقافة في شخصيته من خلال شعره، إلى جانب كون شعره معبرا عن قضايا المجتمع في عصره، وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي، فانتقيت بعد الاستقراء بعضًا من قصائد الشاعر التي تدل بوضوح على ملامح الثقافة في شعره وتحليلها في ضوء هدف البحث، وهو استقصاء روافد الثقافة في شعر حافظ إبراهيم، وبيان دورها في تشكيل تجربته الشعرية، وإبراز ملامح قوميته المصرية.

واشتمل البحث على تمهيد يكشف بعضا من مظاهر النهضة الأدبية في مصر، ومطلبين: الأول: حياة الشاعر حافظ إبراهيم ، وقد قُسِّمَتْ مراحل ثلاثة، والثاني: روافد الثقافة في شعر حافظ إبراهيم، عرفت فيه الثقافة، ومن أهم روافدها عند حافظ نشأته وظروفه الخاصة وظروف الوطن العامة واتصاله بالإمام محمد عبده، وحب العروبة والوطن والإسلام.

وانتهى البحث إلى أن حافظ قد استمد روافده الثقافية والشعرية من الحياة المصرية والعربية والإسلامية بكل نواحيها لغة ودينا ووطنا بل وتجاوب مع الإنسانية في صورتها الكبرى وما قصيدته في زلزال (مسينا) الإيطالية إلا دليل على ذلك.

كلمات مفتاحية: *حافظ إبراهيم، الثقافة، روافد ..*

المقدمـــة :

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على نبيّ الأمم، سيدنا محمد الأجل الأكرم، وبعد:

فيعدُّ حافظ إبراهيم ثالوث البعث والأحياء، تلك المدرسة التي انطلقت بخطابها الشعري تدعو إلى التمسك بأهداب التراث، ومحاكاة الشعر العربي القديم في فترة انتقالية شهدتها مصر إثر الحملة الفرنسية عليها عام ١٧٩٨م، وخلّفت من ورائها نهضة ثقافية كبرى، كان من أبرز آثارها دخول المطبعة التي شكّلت نواة النهضة الثقافية والأدبية في مصر وبلاد الشام.

وبناءً على هذه النهضة حرَص جماعة الإحياء على استدعاء التراث وبعثه من مكامن التاريخ بعثًا واعيًا وتوجيهًا ينبي عن أهداف وأبعاد متصلة بالذاتية الثقافية والحضارية العربية.

فلاحت تباشير هذه المدرسة متزامنة وحركة الطباعة والنشر والإنتاج الفكري والأدبي، فكان من أبرز مقاصدها إنشاء جبهة دفاعية ضد ثقافة الآخر، وخوفها من الذوبان والاضمحلال. "فنحن أمام رد فعل ثقافي، يرمي إلى التمسّك بالهوية الثقافية، واستحضار الذاكرة الحضارية كآليات دفاع وهجوم في الوقت نفسه ضد الغزو الثقافي والسياسي والأجنبي"[١].

حقًّا إن حركة الطباعة والنشر، وتأسيس دار الكتب المصرية، وجمعية المعارف، ومجمع

---

١ – "سوسيولوجيا الخطاب الشعري الإحيائي، ثالوث الذاكرة والتراث والهوية"، إعداد: آمال موسي، مجلة الفيصل، أغسطس ٣١، ٢٠١٧م.

اللغـة العربيـة، وكـذلك ظهـور حركـات الإصـلاح الإسلامية والجمعيات والأحزاب السياسية، وظهور مدرسة البعث في آواخر القرن التاسع عشر... كل هذه الجوانب مجتمعة وقع على عاتقها مسؤولية بعث مشاعر الهوية العربية، وتدارك الواقع الثقافي والاجتمـاعي المتقهقـر، وتمجيـد رمـوز الماضـي العربـي المزدهـر وإبداعاتـه فـي مجـالات القـول الشعري والنثري والفكري والديني والثقافي[٢].

ويعدُّ الشـاعر حـافظ إبـراهيم مـن أبـرز رواد هذه المدرسة، والذي أدرك أهمية استحضار الواقع الثقافي والاجتماعي في شعره، فجاء شعره بلورةً لذلك وتكثيفًا، إذ لا يخلو ديوانه من قصيدة تترجم صورًا متنوعة من صور الثقافة المصرية في شتى جوانبها، ولا غرو؛ فحافظ شاعر الشعب، والابن البار لأمته، والأخ لأبناء جلدته، يشاركهم آلامهم وأفراحهم، ويشاطرهم همومهم ومعاناتهم.

فكان هذا هو السبب المنشود وراء اختيار الموضوع والشاعر معًا محاولةً لإنصافه مما وجّه له من انتقادات في شعره ـ شكلاً ومضمونًا ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى إثراء المكتبة العربية والحراك الثقافي الذي يفتقر للكثير من الدراسات المتنوعة حول هذا الشاعر.

ولقد استمد هذا الموضوع أهميته من مكانة الشـاعر فـي العصـر الحـديث، فقـد كانـت " شخصيته واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد، يستطيع المرء أن يصـل إلـى أعماقهـا فـي غيـر عسـر أو مشقة"[٣]؛ لذا فهو يُعد شاعر الشعب الذي استطاع أن يعبر عن شئون مجتمعه وقضايا عصره، فألفه الناس وأحبّته الأفئدة.

وعليه، فقد اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مطلبين:

- **الأول: حياة الشاعر حافظ إبراهيم.**
- **والثـاني: روافـد الثقافـة في شـعر حـافظ إبراهيم.**

يسـبقهما مقدمـة: تتنـاول وصـف مـوجز للبحـث، مـع ذكـر أهميتـه، ودوافـع الكتابـة فيـه، وخطـة البحـث ومنهجـه. ويعقبهـا تمهيـد: يتنـاول بعضًا من مظاهر النهضة الأدبية في مصر، وفي النهاية تأتي الخاتمة متضمنة أبرز ما وصل إليه البحث من نتائج.

وكان هذا التقسيم على ضوء منهج متبع، وهـو المـنهج الوصـفي التحليلـي، وذلـك باسـتقراء ديـوان الشـاعر، وانتقـاء بعضٍ مـن قصـائده التـي تدل دلالـة واضـحة علـى ملامـح الثقافة في شعره، معتمدةً في هذا البحث على ديوان حافظ إبراهيم النسـخة التـي ضـبطها وصـححها وشـرحها: أحمـد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، الطبعة الثالثة المطبوعـة بالهيئـة المصـرية للطباعـة والنشـر بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

وبعـد، فـإن هـدف الدراسـة المنشـود هـو استقصـاء روافـد الثقافـة فـي شـعر حـافظ إبـراهيم،

[٢] – انظر: المصدر نفسه.

[٣] – حافظ إبراهيم" شاعر النيل"، عبدالحميد سند الجندي، ط٤، دار المعارف القاهرة، ت د، ص ٤٩.

وبيان دورها في تشكيل تجربته الشعرية، وإبراز ملامح قوميته المصرية.

الدراسات السابقة:

وحرصًا على شمول هذا البحث وذكرِ جهود السابقين، فقد وجدت بعض الدراسات السابقة ذات الصلة بالموضوع، منها على سبيل المثال:

- **رسالة ماجستير بعنوان:** "الاجتماعيات عند حافظ إبراهيم"، إعداد: فخر الدين أحمد، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، عام ١٩٧٦م.
- **رسالة ماجستير بعنوان:** "الأخلاق في شعر حافظ إبراهيم، دراسة موضوعية فنية" إعداد: فوزية عبدالله الشمراني، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى ١٤٣٠/١٤٣١هـ.
- **مقال للدكتور جابر قميحة بعنوان:** قيم إسلامية في شعر حافظ إبراهيم، الموقع الرسمي للدكتور (اللينك).

تمهيد:

صارت مصر وجهة العلماء في جميع أقطار العالم الإسلامي بعد أن زال ملك بني العباس عنها وعن غيرها حين تقلصت سطوتهم وسيطرتهم على الأقطار الإسلامية، وخاصة بعد أن عاث التتار، وتحكم الغزاة في حاضرة الإسلام ودار السلام، وهدموا مدينتها، وعفوا آثارَ مجدها، فلم يجدوا غير مصر خصوصًا بعد أن أصبحت موطن الخلافة، ومقر الإسلام. فرحلوا إليها من جميع الأقطار، وقد وطَّأ لهم السلاطين أكنافهم وأنزلوهم منزلًا مباركًا، أغدقوا عليهم الصلات، وأحاطوهم برعايتهم وعطفهم، فوجدوا حرمًا آمنًا ومكانًا يُنْبِتُ العزَّ، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون.

امتد حكم المماليك فترة على مصر حتى كان الفتح العثماني فأصاب العقم شتى النواحي، وكسد سوق العلم، وانفض عنه الباحثون؛ إذ نقل العثمانيون أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية، ونقلوا العلماء والأدباء والأمراء والوراقين إلى بلادهم، ولم تلق العربية من يأخذ بيدها؛ لأن التركية حلت محلها، وأصبح الشعر بوجه عام في العصرين المملوكي والعثماني فاقدًا لكل خصائص الفنية ولم يكن ذلك حدثًا مفاجئًا، بل كان نتيجة للضعف الذي تدرج عليه الشعراء منذ فترة في اللغة التي هي عماد الجملة العربية، وإطار الثقافة ورافدها العام، وأصبح الضعف سمة غالبة في نواحٍ كثيرة في الحياة، وساروا على هذا المنهج المتدني مما جعل الشعراء يصطنعون الشعر ويعتمدون في صياغته على المحسنات البديعية، حيث جعلوها هدفًا وغايةً، ومع نضوب الأذواق شاع الجمود والتكلف والافتعال. ويتبع كل ذلك أسلوب مسفٌّ وتصوير تافه، وشيوع الألفاظ العامية، واستحداث أنماط لم تكن معروفة في التراث، ثم كان التطفل على الفن الأصيل، واستعراض المقدرة بالصناعة والزخرفة، كالتاريخ في ذيل القصائد والبديعيات والتضمين.

يقول الشاعر سراج الدين الوراق (م ٦٩٥ هـ) فيمن اسمه عرفات موريا:

أطنَبُوا في عرفات وغَدَوا

ثم قالوا لي: هل وافقتنا؟

يتعاطون له حسن الصفات

قلت: عندي وقفةٌ في عرفات[٤]

وقد صرح شاعر من شعراء ذلك العهد – وهو مجير الدين بن تميم– بشدة نزوعه إلى التضمين فقال:

أطالِعُ كلَّ ديوان أراه

أُضَمِّنُ كل بيت فيه معنى

ولم أزجُرْ عن التضمين طيري

فشعري نصفه من شعر غيري[٥]

كما ظهر نوع من المباراة بالشعر، كالذي حدث بين صلاح الدين الصفدي وجمال الدين بن نباته م ٧٥٠ هـ في تضمين أعجاز معلقة أمرئ القيس، فكتب صلاح الدين جمال الدين معاتبًا .

أفي كل يوم منك عتب يسوءني

كجلمود صخر حطه السيل من عل "[٦]

وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد فأجابه جمال الدين متهكمًا بقصيدة طويلة أولها :–

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل[٧]

ويبدو أن الشعر في هذه المرحلة أصبح عملاً عقليًا بحتًا لا صلة له بالعاطفة والشعور، ولهذا سكنت بلابله، واستحال نظمًا خاليًا من روعة المعاني، قفرًا من بدائع المواهب والفطر السليمة، ولا عجب فإن الفنون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب وتهدأ النفوس، ويكثر الخير وتسهل أسباب الحياة، أرأيت الطائر الغرد يغني بين حفيف السهام ؟ وقد كان الأولون يقولون:

" إن اللها تفتح اللها " وقد قلّ العطاء في ذلك العصر، وانقطعت صلات الشعراء.

وإن كنّا لا نعدم بعض الشعراء الذين خففوا من قيود الصنعة، وارتفعوا عن الإسفاف حتى قاربوا رتبة المجيدين. من هؤلاء الشاعر الشهاب الخفاجي (م ١٠٦٩ هـ) الذي يقول :

فديتك يا من بالشجاعة يرتدي

فإن عشق الناس المها وعيونها

فدرعُك قد ضمتك ضمة عاشق

وليس لغير السمر في الحرب يغرس

من الدَّلِ في روض المحاسن تنعس

وصارت جميعًا أعينا لك تحرس[٨]

والشاعر ابن منجك (م ١٠٨٠ هـ) الذي يقول:

لا تتهم بالسوء دهرك إنه

مرآتك الدنيا وفعلك صورة

جبل يجيب صداك منه صداء

فيها فما الشنعاء والحسناء؟[٩]

---

[٤] . عقد الجمان، لبدر الدين العيني، عصر سلاطين المماليك، ج ٣ ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م . ٣٣٢/٣ .

[٥] . الوافي بالوفيات صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط دار إحياء الثراث العربي ، بيروت، لبنان ١٤٩/٥.

[٦] . خزانة الأدب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبدالله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، الطبعة الأولى،دار ومكتبة الهلال بيروت ٣٢٤/٢.

[٧] . المصدر نفسه.٣٦/١

[٨] . في الأدب الحديث: عمر الدسوقي، الطبعة: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، دار الفكر العربي، ١٧/١.

لا غرو، فالشعب قد تفشى فيه الجهل نتيجة لعدم اهتمام المسئولين بتثقيف الأمة وتكالبهم على الحكم، حتى كان انصراف الأدباء عن الأدب وامتهانهم لكل حرفة ما عدا حرفة الأدب، وإكباب نفر من العلماء على الجمع والتدوين.

وبعد فترة انقسام طالت على الأمة الإسلامية بوجه عام، وتعاقب أكثر من حكم على مصر، وانقسام شعبها بوجه خاص، اتفقت كلمة زعماء الشعب على تولية محمد علي واليًا على مصر، الذي رأى أن البلاد في حاجة إلى ثورة عامة، وخاصةً في التعليم، فأنشأ المدارس منها الحربية عام ١٨٢٥م ، ثم مدرسة الطب في العام التالي، وحيث يتخرج رجال الجيش من الحربية يتعهدهم خريجو الطب بالإشراف عليهم وعلاجهم، وكان المصريون على معرفة بالالتحاق بهذه المدارس " رغم المراكز الهامة التي كانوا يلتحقون بها بعد تخرجهم، ولكنهم أقبلوا حين وجدوا العناية الكبيرة التي يلقاها الطلاب، حتى أصبح عدد المدارس في مصر ثلاثًا وثلاثين مدرسة ما بين ابتدائية وتجهيزية وخاصة " [١٠]

ولقد تطلب إنشاء هذه المدارس آنذاك استقدام الأساتذة الأجانب لتدريس العلوم، وفي الوقت نفسه اِسْتُقْدِمَ المترجمون للتيسير على الطلاب؛ لفهم ما يلقيه الأساتذة الأجانب، وكان المترجمون ينتسبون إلى عدة جنسيات، منهم السوريون والمغاربة وغيرهم، كما تم إرسال البعثات إلى الخارج. كل ذلك أحدث ثورةً فكرية، والتقاءً في الأفهام كان له أثره. وعاد هؤلاء المبتعثون فكانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوربية في العصر الحديث، ورأوا في أوروبا علمًا وحضارة، ورأوا بلدهم مصر في أول الطريق لبناء نهضتها، فعملوا على السير بها شوطًا كبيرًا في ذلك الطريق[١١].

وكان عودة هؤلاء بداية النهضة الثقافية والأدبية الحديثة في مصر، فقد عملوا على إيصال محصولهم من المعرفة للدارسين، واستعانوا في ذلك بالمراجع مما أوجب ترجمة المصادر "عمدوا إلى مراجعة القواميس العربية والاستعانة بها فاستفادت العربية ثروة جديدة " [١٢]، وكانت العربية السائدة آنذاك لا يمكن أن تفي بمطالب النهضة المنتظرة – لا لعجز فيها أو قصور – ولكن لغلبة اللكنة الأجنبية على الألسن وشيوع الألفاظ الركيكة مع التركية، مما دعا بعض الأدباء إلى التنقيب في كتب الأقدمين واستخراج الألفاظ التي تعبر عن المصطلحات، فإن وجدوا صعوبة في التعبير عنها وعن الألفاظ الفنية مضوا يصنعون المصطلحات ويطلقون الألفاظ ، ونتج عن دراستهم لكتب الأقدمين تتبعهم لجميع آثارهم،

[٩] . خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، ٤٢٠/٤.

[١٠]. تطور الشعر العربي الحديث: ماهر حسن فهمي، ط١، مؤسسة الرسالة، ت د، ص ١٤.

[١١] . انظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، طبعة جديدة راجعها وعلّق عليها: شوقي ضيف، دار الهلال، ت د، ١٣/٤

[١٢] المصدر نفسه، ٦٣/٤.

فعكفوا على مراجعتها وخاصة ما كان منها في باب الأدب واللغة، فهالهم ما وجدوا، وراعتهم منازع بلاغاتها، وهفت نفوسهم للاستزادة منها وإشاعتها فطبعوا طائفة من كتب أئمة اللغة وأعيان البيان في العصور المتقدمة.

لقد كان دور المبعوثين بارزًا وعظيمًا في مجال التأليف والبحث والترجمة والفكر، فكان من أبرزهم رفاعة الطهطاوي الذي اقترح على محمد علي إنشاء مدرسة الألسن؛ لسد حاجة البلاد من الترجمة، وانتشرت المطابع كالمطبعة الأميرية التي أنشاها محمد علي سنة ١٨٢٢ م، وقد بدأت تعمل منذ ذلك الحين، وكان لها دور كبير في نشر الثقافة بين المصريين، كما ظهرت بعض الصحف، وإن كانت تصدر في البداية باللغة التركية كالودائع إلا أنها تحولت إلى العربية، ولقد " تولى رفاعة الطهطاوي أمرها فنهض بها نهضة لها خطرها فاختفت الأخبار التافهة، وحلت محلها الأخبار المشوقة والقطع الأدبية الممتازة " [١٣].

وباتساع دائرة النهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر " بدأ الشعب يحس بكيانه ويدافع عن مصيره تحت الضغط الواقع عليه من الأجانب، واحتلت الصحافة مكانًا مرموقًا في الحياة الاجتماعية "[١٤]. وبدأت الكتابة تنأى عن السجع وأنواع البديع المتكلف؛ لتعرض الأفكار المتكاملة والطرق العلمية الجيدة، واحتضن الشعراء دواوين الأقدمين، وحفظوا منها الكثير وعكفوا على قراءتها، وافتتنوا بالمتنبي وأبي نواس والبحتري وابن خفاجة وابن المعتز وغيرهم، وراعهم ما قرأوا، وكان لابد أن يتأثر الشعراء بكل ذلك فبدأوا يعبرون عن أنفسهم الشاعرة.

كانت الدلائل تشير إلى أن الثورة في مجالات المعرفة إرهاصًا بظهور المبدعين في كل فن وبخاصة الأدب، فبرزت مدرسة الإحياء على يدي مؤسسها محمود سامي البارودي، وإن كان في الإمكان القول بأن شعر ما قبل البارودي عامة قد وسم بفتور العاطفة في شتى الأغراض، إلا أن البارودي كان يسير وحده بخطوات واسعة تاركًا وراءه شعراء عصره، يسبقهم بمراحل ويتفوق عليهم، ولحق بالشعراء المجيدين في عصور الشعر الزاهية حيث أقبل على دواوينهم بنهم لا يبلغ له نهاية حتى استظهر الكثير، ووعى منها القدر الذي يحمله على جناح الفصحى ومطية البلاغة؛ ليقرن اسمه بمشاهير الشعراء في كل عصر فعارض هذا وناقض ذلك، وإن كان البارودي قد تتلمذ على الشعراء الأقدمين إلا أن ذلك وحده لم يكن ليصنع منه شاعرًا متكاملاً فردًا، فقد جمع ذلك طبعًا سليمًا وذوقًا فطريًا، وحاسة مرهفة خلاقة جعلت منه الشاعر الذي يَطْفِرُ بالشعر طفرة عظيمة ردت عليه ديباجته التي تأصلت من مئات السنين .

تصدر البارودي للشعر وهو لايزال يافعًا حَدَثًا " فنظمه في التركية كما نظمه في الفارسية، وقد ـ كان ضليعًا في آدابهما، ونظم في العربية

[١٣] المصدر نفسه، ٦٣/٤.

[١٤] تطور الشعر العربي الحديث ماهر حسن فهمي، ص٣٧.

وهو دون العشرين فأوفى على الغاية من الإبداع والإحسان " [١٥].

اختلفت نظرة البارودي للشعر اختلافًا كبيرًا عن نظرة الكثيرين من معاصريّه فهو عنده سجل خالد للشاعر، وذكرى عطرة فهو يقول:

تدبر مقالي إن جهلت خَلِيقَتي
لتعرفني، فالسيف يعرف بالأَثْرِ
سيذكرني بالشعر من لم يلاقني
وذكر الفتى بعد الممات من العُمْرِ

ويقسِّمُ الأستاذ العقاد الفترة ما بين الركود والجمود في الشعر وبين النهضة والإجادة إلى أربع مراحل، أو أربع درجات متواليات إذ يجعل المرحلة الأولى: دور التقليد الضعيف، وثانيها: دور التقليد المحكم، وثالثها: الابتكار الناشئ من شعور بالحرية القومية، ورابعها: الابتكار الناشئ من استقلال الشخصية ومن شعور بالحرية الفردية ويجعل البارودي في الطليعة من مرحلة الابتكار التي يأتي بها الشعور بالحرية القومية [١٦].

ومحصلة ما سبق أن البارودي وإن كان قد نظم الشعر ومايزال فتي غضا، قد تمكّن من فنه فبرز وبرع وأطلق الشعر جزلاً فخمًا، وحلّق به في سماوات الإجادة، واستحق أن ينسب إليه إحياء الشعر العربي من الرفات وتحريره من عبودية الصنعة حتى ضاهى به ما قيل في أزهى عصوره، وكان بذلك زعيم مدرسة ترسَّمَ خطاه من جاء بعده وسار على نهجه خلال النصف الأول من القرن العشرين.

ويكاد النقاد يجمعون على زعامة البارودي للمدرسة الاتباعية والتي انطوى تحت لوائها كثير من الشعراء من أمثال: عبد المطلب، والرافعي، والجارم، والكاظمي، وتمسّك هؤلاء الشعراء بالنسق الموروث. فانطلق الشعر قويًا شريف المعنى، مشرق الديباجة، متلاحم النسج، رصين القافية، متأجج العاطفة، يرصد المجتمع ويبعد عن الإغراق في الذاتية. كما تخففوا من المحسنات البديعية إلا ما جاء عفو الخاطر بلا تكلف، ويجمعون على التزام المحافظة على طريقة العرب ولغة القرآن. ولزعيمهم الجهد المحمود في رد الشعر إلى أصوله ومنابعة وفتوته وقوته ونضارته وتألقه في العصور السابقة يقول العقاد:

"ولقد كان البارودي إمام الشعراء في هذا الطور الحديث بلا ريب ولا خلاف وصاحب الفضل الأول في تجديد أسلوب الشعر، وإنقاذه من الصناعة اللفظية والتكلف العقيم، وردّه إلى صدق الفطرة وسلامة التعبير، فهذا الإمام المتقدم ذو أثر عظيم، ومن لحق به من الشعراء المحدثين ولاسيما حافظ إبراهيم" [١٧] الذي هو محور هذا البحث.

المطلب الأول:

- **حياة حافظ إبراهيم:**

إنه من العسير أن يسرد البحث في عجالة كلَّ الجزئيات التي تدخل في تكوين الإطار العام للشخصية حسبما تعارف الدارسون، فمن المهام الشاقة على الدارس أن يتناول كل ما يمت للأديب

[١٦] شعراء مصر وبيئاتهم العقاد، ص٩٠.

[١٧] انظر: المصدر نفسه، ص١٣.

بالرصد والتحليل والنقد؛ ولكنه يحاول أن يعطي هنا صورة شبه متكاملة باعتبارها مدخلاً لفهم الشاعر ونتاجه، وهو ما سيتناوله البحث بالقول الكاشف عن سمات شاعرنا، وقد يكون مسايرةً لمنطق الأشياء تقسيمُ حياة الشاعر إلى مراحل ثلاث:

- **المرحلة الأولى:** تبدأ من ولادته حتى تخرجه من المدرسة الحربية (١٨٧٢ – ١٨٩١ م).
- **المرحلة الثانية**، وفيها تخرج من الحربية والتحق بوزارتها ثم بوزارة الداخلية (١٨٨٨– ١٨٩٦).
- **المرحلة الثالثة:** وهي الفترة التي عمل فيها بدار الكتب حتى وفاته (١٩١١ – ١٩٣٢ م).

أما عن المرحلة الأولي فتبدأ بولادة حافظ إبراهيم، وكما تشير أكثر المراجع أنها كانت سنة ١٨٧٢ م بديروط إحدى قرى أسيوط على سفينة راسية على شاطئ النيل، وكان أبوه أحد المهندسين المشرفين على قناطر ديروط، ولم يعش طويلاً بعد ولادة ابنه فنزحت به أمه إلى القاهرة، فكفله خاله، وحين شب عن الطوق ألحقه بالمدرسة الخيرية، ولكنه لم يبقَ بها وتركها إلى مدرسة القريبة ثم إلى مدرسة المبتديان، ومنها إلى مدرسة الخديوية، وما كاد يأنس بالاستقرار حتى اصطحبه خاله إلى طنطا حيث التقى بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، وكان طالبًا بالمعهد الأحمدي (١٨٨٨ م) وعمره آنذاك ستة عشر عامًا، وقد قضى وقتًا مع صديقه في مذاكرة نوادر الأدب، ولكن الحال لم يدم به، إذ كان من طبعه سرعة الملل، فاضطر خاله إلى أن يعلن ضجرة به وتذمره منه، وقد فطن حافظ إلى شعور خاله نحوه، وقرر هجره ونظم في ذلك بيتين قال فيهما:

ثقلت عليك مؤونتي
فأفرح فإنّي ذاهبٌ
إنّي أراها واهيه
متوجهٌ في داهيه[١٨]

ترك كافله وأعلن العصيان، وانفرد بالحياة يجرب حظه، ولكنه كان مشدودًا بأوثق الصلات بالبؤس وخطواته مقيدة بالتعثر، فالتحف الآهات، واحترف الشكوى، وتمنّع عليه الموت المنقذ مما هو فيه:

عجب لعمري كيف مُدّ فطالا
وللموتِ، ما لي قد أراه مباعدًا
فللموتُ خيرٌ من حياةٍ أُرَى بها
وما آثرت فيه الهمومُ زوالا
وجُلُّ مرادي أن أُوَسَّد حالا
ذليلاً وكنتُ السيّد المِفضالا[١٩]

ثم ما لبث أن بحث عن عمل حر يَشغل به وقته، ويداوي به نفسه الملول، ففكر بالمحاماة، ولكن لم يكتب له اللحاق بركبهم، بل كان المتخلف العاجز في حلبتهم، ووجد من حظه

---

[١٨] – ديوان حافظ إبراهيم: ضبطه وصححه وشرحه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م،مقدمة الطبعة الأولى، ص٥٨.

[١٩] – المصدر نفسه، ص٥٩.

عنادًا وحربًا عليه، فأضمر في نفسه وهمس إليها بالانتقال من طنطا إلى القاهرة هربًا من البؤس الذي يستبق همه، وحط رحالة في مدرسة الحربية حيث داعبت الأماني خاطره في أن يكون شيئًا، واستمر بها حتى تخرج ١٨٩١ م وقد نظم كثيرًا من الشعر في هذه المرحلة إلا أنه وجده غير لائق بإذاعته، فماذا فعل فيه ؟ يقول **الاستاذ أباظة:** "حدثني رحمة الله أنه نظم كثيرًا أثناء الدراسة الابتدائية، ولكنه عندما شب عاد إلى شعر الحداثة فأتلفه جميعا؛ لكيلا يحظى من كلامه إلا بالشعر الناضج الرصين" [٢٠].

المرحلة الثانية، حيث تخرج من الحربية والتحق بوزارتها، ثم بوزارة الداخلية ملاحظًا بمركز بني سويف، ثم معاونًا للبوليس بمركز الإبراهيمية، وعاد مرة أخرى إلى الحربية فأحيل إلى الاستيداع وأمين بإدارة التعيينات. وخلالها سافر إلى السودان مع من أصبحوا كشف في حملته على السودان وضاق ذرعًا بعمله في السودان، وأظهر تبرمًا، وأكثر من الشكوى، وعاوده داء الملل. وفي سنة ١٨٩٩ م حدثت ثورة في السودان التي اتهم فيها حافظ بالتآمر مع مجموعة من أصدقائه فأحيلوا للاستيداع، وتركت هذه الحادثة في نفسه أثرًا أليمًا، وجرحًا عميقًا حيث كان يتراءى له شبح البطالة عن كثب، ويسول له التماس إحالته إلى المعاش فأجيب إلى طلبه وعاد من السودان حوالي سنة ١٩٠٦ م .

وفي هذه المرحلة تجد المسحة الغالبة على شعره هي الشكوى، وإن كان في أوليات القصائد وهو بالجيش يتندر ببعض الأراجيز ينشئها في رؤسائه مثل قوله :

تراه إذ ينفخ في المزمار
يجتنب العاقل والنبيها
تحسبه في رتبة السردار
ويعشق الجاهل والسفيها[٢١]

وقد كان عدم الرضا والقناعة صفتان لازمتان له في كل خطوة، وقد راسل صديقه محمد بك بيرم سنة ١٩٠٠ م بقوله :

فمن لي أن أرى تلك المغاني
وها أنا بين أنياب المنايا
أتيتك والخطوب تزف رحلي
وما فيها من الحسن المقيم
وتحت براثن الخطب الجسيم
ولي حال أرق من السديمِ[٢٢]

شكا الوحدة ونظر إلى الزمن والدهر بعينين معصوبتين بالحنق، وقلب مثقل بالخوف من المستقبل، ووسم دهره بالجور في الأحكام وبالظلم، " لقد وجهته الظروف إلى الحرب، وقد تعلم ولكن من فقر وبؤس، وارتحل ولكن إلى حيث الكد الذي لا [٢٣]يفيد والعناء الذي لا يغني إلى حيث الشمس المحرقة أبدًا المشرقة أبدًا، إلى الطبيعة المظلمة مضى كئيبا محزونًا.

---

[٢٠]– حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية، محمد هارون الحلو، ط د، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ت د، ص١١١.

[٢١] – ديوان حافظ إبراهيم، مقدمة الطبعة الأولى، ص٦٣.

[٢٢] – ديوان حافظ إبراهيم، مقدمة الطبعة الأولى، ص٧٤

[٢٣] حافظ وشوقي: طه حسين ، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٦٦، ص١٦٤ومابعدها.

كتب إلى زمرة من أصدقائه يقول :

من واجِد منفّرِ المنام
طريد دهرٍ جائرِ الأحكامِ
مشتّت الشملِ على الدوامِ[٢٤]

ويستطرد فيقول :

يا ليت شعري بعد هذا العام
إليكم ترمي بي المرامي
أم ينتويني رائدُ الحِمَام
فأنطوي في هذه الآكام[٢٥]

دأب الشاعر على بكاء الحظ العاثر، وندب فألـه السيئ، وإن كـان يخلـف واقعـه الـذي يعيشـه ويتبرأ من شكواه، ويظهر رضاه على عكس ما يحس به أحيانا. كتب إلى صديقه البابلي بالقاهرة قصيدة بعث بها إليه من السودان يقول فيها:-

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا
وإذا خان قسمنا ما شكونا
ولو بات دون قوت النعام
لسوى الله أعدل القسّام[٢٦]

وإن كان من السهل استخلاص الأنات التي كانت ترسلها نفسه المتعبة من بين تلك الكلمات السابقة، والتي تعتبر كالخيط الدقيق الذي يشد بعضها إلى بعض. **ثم يقول:**

كيف تنسى يا (بابليُّ) غريبًا
وحزينًا إذا تنفّس عادت
بات تحت البلاء حتى تمنّى
بات بين الظنون والأوهام
فحمةُ الليلِ جمرةً من ضرام
لو يكون المبيتُ تحت الرَّغام[٢٧]

لم يطق جو السودان، وخاصة عندما يتذكر الدعة والجو البديع والأصدقاء في مصر، فيقول واصفًا حاله:

وما أعذرت حتى كان نعلي
وحتى صيرتني الشمس عبدًا
وحتى قلّم الإملاق ظفري
متى أنا بالغٌ يا مصرُ أرضًا
دمًا، ووسادتي وجه التراب
صبيغًا بعد مـا دَبَغَت إهابـي
وحتى حطّم المقدارُ نابي
أشُّـــــم بتربهـــا ريح المـلابِ[٢٨]

كان نتاجه الشعري في هذه المرحلة أغزر وأوفر من المرحلة التي سبقتها، وزاوج في أغراضه بين الشكوى والوصف، وشعر الاجتماعيات ملتزمًا العمود العربي الموروث .

ما بين المرحلتين الثانية والثالثة مدة قوامها خمس سنوات لا يمكن إغفالها؛ لما لها من تأثير عميق على نفسية شاعرنا وإحساسه وبالتالي على شعره.

كانت هذه الفترة من عمر حافظ إبراهيم أشد عليه مما سبق، وأعنف حيث عاد من السودان بعد أن أحيل إلى المعاش " فقد عاد من غيبته تنتظره البطالة والشوارع والقهوات المنحطة والفقر

[٢٤] – ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٩٨.
[٢٥] – المصدر نفسه، ص ١٩٩.
[٢٦] – ديوان حافظ إبراهيم، ص٢٠٢.
[٢٧] – المصدر نفسه.
[٢٨] – المصدر نفسه، مقدمة الطبعة الأولى، ص٦٢.

والشظف وسوء الحال، وهذا الهم الثقيل الطامح الذي يضاجع الفقير إذا آوى إلى فراشة ويكشر له عن أنيابه "٢٩.

عرض نفسه على جريدة الأهرام؛ ليتولى عملاً فيها ولما لم يفلح ظل بلا عمل " يغشى مجلس الإمام الأستاذ، وكان قد اتصل به أيام كان في السودان، فلما عاد زاد اتصاله به وعطف عليه الأستاذ وأنهله من علمه وفضله، كما غشي مجالس الأدباء والعظماء يسمع منهم ويغني لهم بشعره وأدبه "٣٠.

في هذه الفترة خالط جمهور العامة وجالسهم كما استمع إلى الأدباء والعلماء المتصدرين لمجلس الإمام، ونزل إلى المقاهي مع الدهماء والعامة وتجاوب شعره معهم، ووجد قبولاً واستحسانًا فترجم عن مشاعرهم وأحس بإحساسهم فأكثر من شعر الوطنية والحماس، إذ إنه لا يخشى من شيء، ولِمَ يخشَى ؟ فلا وظيفة يخاف عليها من الضياع، ولا أهل يورثهم مئونة الهم والحزن، فراح يحفز الهمم، ويتجاوب مع الأحداث ، وارتمى في أحضان الشعب يتحدث عنه، يعبر عن كل موقف بقصيدة يكسبها قوة حين يلقيها، يتضافر صوته المؤثر ذو الجرس المنغم مع العاطفة الجياشة التي تسري في قصائده "والمحقق علي كل حال أن صوته في الإلقاء ولباقته في الإيماء كان لهما شأن في جذب الأسماع إليه، وإعجاب الناس به ليس بالشأن اليسير " [٣١].

كان حريصًا أشد الحرص على صلته بالشيخ الإمام، ويخاف أن تنفصم عرى المودة بينهما، ولذلك كان يبادر إلى نفي كل هاجس يخطر على باله، ويظن بأنه سينال من مكانته عنده فيهوي إلى حيث لا يهوى، نسمعه يقول متعطفًا:

لقد بتُّ محسودًا عليك لأنني
فلا تبلغ الحساد منّي شماتةً

فتاك، وهل غير المنعّمِ يُحسدُ ؟
ففعلك محمودٌ وأنت محمّدُ [٣٢]

كما احتل شعر الإخوانيات جانبًا كبيرًا من شعره في هذه الفترة الوجيزة، وكذلك أكثر من شعر المدح والتهاني يشوبهما الظرف والدعابة أحيانًا. يقول مهنئا الخديوي عباس بالعيد سنة ١٩٠٨ م في قصيدة مطلعها .[٣٣]

سكت الظلام وبات قلبك يخفق
وسطا على جنبيك هم مغلق

يقول فيها:

ما للبيان بغير بابك واقفً
إني كهمك في الصبابة لم أزل

نَفْسي برغم الحادثات فتية
يبكي ويُعْجِلُه البكاء فيشرق

[٢٩] حافظ وشوقي، طه حسين، ص ١٦٦
[٣٠] مقدمه ديوان حافظ ، ص٥.
[٣١] شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد، ط د، ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥م ، ص ١٥ – ١٦ .
[٣٢] ديوان حافظ إبراهيم، ص١٩٥
[٣٣] ١ ديوان حافظ إبراهيم، ١/ ٤١

ألهو وأرتجل القريض وأعشق

عودي على رغم الكوارث مورق

أما **المرحلة الثالثة** فتبدأ منذ سعى له أحمد حشمت باشا سنة ١٩١١ م ناظر المعارف حينذاك، وعيّنه رئيسًا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظل بها إلى أن أحيل إلى المعاش بعد قضاء عشرين سنة بدار الكتب توفي "بعد إحالته إلى المعاش بنحو أربعة أشهر ونصف" [٣٤].

بقدر ما تعتبر هذه المرحلة طور الركود، وخمود جذوة القريض عند شاعرنا إلا أنه قد لاقى من أسباب الحياة ما يضمن معها قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتنعم فقد انتعش ماديًا وترفه وأوغل فيه "كانت هذه الفترة من حياته – وما أطولها! – فترة نضوب في شعره، وجمود في قريحته إلا نادرًا فكان منصبه نعمة عليه، ونقمة على فنه، ومنفعة له، ومضرّه على الناس. ولعل أيام بؤسه الأولى روّعته وأفزعته حتى قامت شبحًا دائمًا أمام عينه، تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب في منصبه أو مس في مرتبه" [٣٥].

وهكذا نجد الشاعر –سيرًا على مبدأ المهادنة– يمسك عن القول، ويصمت عن القريض ويحبس نفسه اختيارًا في قفص الوظيفة، ويشيح بقلبه عن مصادر الإلهام، ويخالف صريحًا –إن قال– ما كان يذهب إليه من رأي، ويدعو إليه، نسمعه يقول للسلطان حسين مطالبًا إياه أن يوالي الإنجليز ويمدهم بحبال الود في قصيدة قالها سنة ١٩١٥ م مطلعها: [٣٦]

هنيئًا أيها الملك الأجلُّ

تسنَّم عرشَ إسماعيل رحبًا

لك العرشُ الجديد وما يَظِلُّ

فأنت لصولجانِ المُلكِ أهلُ

يقول فيها:

ووالِ القوم إنهم كرام

لهم ملك علي (التاميز) أضحت

وليس كقومهم في الغرب قومٌ

فإن صادقتهُم صدقوك وُدًّا

ميامين النقيبة أين حلوا

ذراهُ على المعالي تستهلُّ

من الأخلاق قد نهلوا وعلّوا

وليس لهم إذا فتشت مثلُ

والشاعر معذور خاصة عندما نعلم سابق البؤس الذي كان يكتنفه، والفقر والشقاء وما عاناه منهما، إذ خمدت جذوة الوطنية مع الحاجة حينها، فوادع المحتل ومدحه، وأكثر من شعر الدعابة والإخوانيات محترسًا من الوقوع في شبهة النقد للسياسة والساسة، كما ارتاد بشعره الحفلات الخيرية، وربما يوافق شعره الذي يلقيه في تلك الحفلات مزاج الدعة وفراغ البال واستقرار سفينة حياته على شاطئ الاطمئنان، وتحلُّله مما كان يثقله من الهموم. وأي هم أكبر من ألا يضمن الإنسان قوت يومه غير آمن في سربه؟! وبالوظيفة كفي عناء التشرد وذاق الهدوء والسكينة وهو بها

[٣٤] مقدمه ديوان حافظ أحمد امين، ص١٦.

[٣٥] مقدمه ديوان حافظ ، ص١٩

[٣٦] الديوان، ص١/ ٦٧ ومابعدها.

أضن من البخيل الشحيح بحاجته. وانسحب ذلك الهدوء على شعره فجاءت قصائد تلك المرحلة تحمل سمات النفس الراضية في موسيقاها الخفية وفي عباراتها وانتظام أبياتها.

يقف داعيًا لجمع التبرعات في حفل خيري أقامته جمعية الاتحاد السوري في الأوبرا السلطانية لإعانة الطلبة الشاميين بالأزهر فيقول : [٣٧]

أيُّها الوسميُّ زُر نبت الرُّبا
إن في الأزهرِ قومًا نالهُم
أصبحوا –لا قدر الله لنا–
نزلاء بيننا إن يُرهقوا
فأعينوهم فهم إخوانكم
واسبقِ الفجرَ إلى روضِ الزهر
من لظى نيرانِها بعض الشرر
في عناءٍ وشقاءٍ وضجر
أو يُضاموا إنّها إحدى الكُبر
مُسَّهُم ضُرٌّ ونابتهم غِيَر

وأنشد يمجد صاحب دعوة إلى الإحسان سنة ١٩١٥ م، فقال وقد مزج بين الجد والدعابة:

لولا سليم لم يقل قائل
لله ما أشجعه إنّه
يقوم في مشروعه نافذًا
تلقاه في الجدِّ كما تبتغي
ولم يجُدْ من جاد بالأمس
ذو مرة فينا وذو بأس
كأنّه عنترة العبسي
وتارة تلقاهُ في الهلس[٣٨]

ورب إحساسٍ دفين حيال اليتامى والمساكين، كان يدفعه إلى أن يتصدر الشعراء الذين يلبون دعوة الجمعيات الخيرية، فيوظف قصائده دعوة لجمع التبرعات؛ حتى يقي الناشئة شرورًا ومعاناة وتشردًا وخاصة عندما تعلم أن الإملاق قد قلّم ظفرة، وما نسوقه من أبيات يمثّل حياته في طفولته وحداثته تمثيلاً صادقًا عندما يقول على لسان حَدَثٍ: [٣٩]

قضيت عهد حداثتي
لم يغنِ عني بين مشـ
صفرت يدي فخَوَى لها
وأنا ابن عشر ليس في
لم يبقَ من أهلي سوى
أمشي يرنحني الأسى
ما بين ذلٍّ واغترابْ
رقها ومغربها اضطرابْ
رأسي وجوفي والوطابْ
طوقي مكافحة الصعابْ
ذكر تناساه الصحابْ
والبؤس ترنيح الشرابْ

وكان ضجرًا بحياته الرتيبة التي بدت معها الدنيا الفسيحة كسجن انفرادي يبث العيون من حوله ترصد عليه نجوى الفؤاد، ولما لم يطق معايشة نفسه بين جدران الصمت السميك بعث لأحد أصدقائه يقول:[٤٠]

[٣٧] الديوان، ١/ ٢٩٩.
[٣٨] الديوان، ١/ ٢٩٧
[٣٩] الديوان، ٣٠٢/٢.
[٤٠] الديوان، ١٨٨/١.

أنا في الجيزة ثاو

أَنْكرَ الأنسُ مكاني

ليس يدري من رآني

ليس لي فيها أنيس

ونأى عني الجليس

أطليق أم حبيس؟

وأدركته منيته صباح يوم الخميس ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ م حيث ودّع أحزان الدنيا وأشجان الوحدة .

المطلب الثاني:

روافد الثقافة في شعر حافظ إبراهيم:

قبل أن نخوض غمار البحث في شعر حافظ للوصول إلى تلك الروافد، أو جمع شيئ منها، ولكي نلتزم الجادة والصواب لابد من تحديد معنى الثقافة التي نحن بصددها وحتى نعرض شعر الشاعر على المفهوم الدقيق لمعنى الكلمة فيأتي الحكم بلا شطط له أو عليه.

الثقافة في معناها العام يرتبط بمعناها العربي المأخوذ من التسوية والتهذيب، والحذق والفطنة، والذكاء، يقول ابن منظور [٤١]:" ثَقِفَ الشيء ثقفًا، وثقافًا وثقوفةً: حذقه...وهو غلام لقن ثَقِف أي: ذو فطنة وذكاء، والمراد أنّه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه"، أما مدلولها الاصطلاحي فهو أبعد ما يكون مما يتوارد إلى ذهن الإنسان من أول وهلة في أنها تحصيل المعرفة، وشاع بين الناس خطأ أن معناها المعرفة والمعلومات وأن المثقف هو الكثير المعلومات، يأخذ من كل علم أو فن أو أدب بطرف، وأن يكون متخصصًا في ناحية. والصواب أن الثقافة في جوهرها هي ما تؤدي بحالها إلى تكوين رؤية خاصة، يرى بها الكون والإنسان، أو هي حصيلة أو أثر لمجموعة عوامل تؤثر في الإنسان وتطبعه بطابع مميز من أصل ينتمي إليه، ولغة يتحدث بها، ومعتقدات يدين بها وأخلاق وعادات ونظرة للحياة ومشاركة في صنعها، أو تنميتها من خلال انتمائه ومعتقداته. ومعنى هذا أن الثقافة حالة روحية أو معنوية أو وجدانية تتكون من هذه العوامل، أو هي الجانب الفكري والروحي في الحياة[٤٢].

وعلى ما سبق، فإذا قلنا مثلاً: ثقافة مصرية وجب أن يكون المراد بالنسبة لهدف البحث هنا: هو حالة وجدانية وذهنية عند المواطن المصري تكون هي مداره في القبول أو الرفض لما يجري حوله من الأحداث، والعوامل التي تؤدي إلى إيجاد هذه الحالة الوجدانية منها: التشبع بروح الدين، واهتمام المصري بكيانه الأسري مما يسمى بمبدأ التعاطف أو التراحم، ثم حبه للوطن. والمواطن بخصائصه تلك عربي الهوية، وهنا تدخل اللغة العربية وآدابها ضمن العناصر التي تكوّن ثقافة الإنسان المصري العربي، بالإضافة إلى ما ينبغي أن يكون له من نظرة علمية ينظر بها إلى المسائل العامة. ويأتي بعد ذلك دور العلم والمعلومات؛ ليكون هدفه تغذية هذا الوجدان بما يقويّة ويدعمه، دون أن يكون داخلاً في تكوينه.

---

[٤١] – لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، تحقيق: عبدالله الكبير وآخران، ط د، دار المعارف مصر، ت د، مادة / ثقف

[٤٢] ,انظر، جريدة الاخبار المصرية، بتاريخ ٢٨ / ١١ / ١٩٨٣ م .

ويمكننا أن نخلص مما سبق إلى تعريف موجز جامع للثقافة على أنها: حالة وجدانية أو رؤية تستمد وجودها من الدين، واللغة، والعادات، والبيئة. وعلى هذا فالثقافة محلية، والعلم لا وطن له، وأن الأمم تختلف في ثقافتها.[٤٣]

ومما سبق يمكن للبحث أن يستعرض شعر حافظ إبراهيم، ويزنه بمعيار مقنن حتى يتعرف القارئ على مقومات الثقافة وروافدها عند شاعرنا.

الحقيقة أن حافظ إبراهيم بحكم نشأته ومعايشته لظروف خاصة، ومعاصرته لتاريخ جد خطير من تاريخ وطنه مصر واغترابه عنها، وتعامله مع مغتصب غادر، واتصاله بالشيخ محمد عبده الذي "هيأ له أن يعيش في البيئة الطامحة إلى الإصلاح".[٤٤] كل تلك العوامل مجتمعة جعلت منه شخصًا يقدّس في المقام الأول وطنه ويخلص له، ثم تتسع دائرة الحب والغيرة لتشمل منه العربية والتي يعبر عنها في قصائده بالشرق يقول في واحدة منها:

متى أرى الشرق أدناهُ أبعده
تجري المودة في أعراقه طلقًا
رأيت رأي المعـــري حين أرهقه
لا تطهر الأرض من رجسٍ ومن درن
عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
كجريةِ الماء في أثناءِ أفنان
ما حلّ بالناسِ من بغيٍ وعدوان
حتى يعاودها نوح بطوفان[٤٥]

آمنت طوائف الشعب العربي، وحكوماته الوطنية بالرابطة الجامعة التي تبعثهم على غاية واحدة. وإذا وجدوا أن هذه القومية هي المارد الجبار يرتعد من رهبته العدو الغاشم هبّوا جميعًا لإرساء الدعائم، واستكمال أسباب السيادة والعزة لهذه القومية الجامعة.

وبرز صوت شاعرنا قويًا يدوي في الدعوة إليها، ويتغنى بأمجادها، بل ويسرف في إثارة المشاعر والأحاسيس لمؤازرتها، كما وقف شامخًا بعد ثورة ١٩١٩م، يستصرخ شعبه وعروبته بقوة روحية خارقة فتتكتل العروبة للنصر، وتؤازر مصر في محنتها وصوته يدوي :[٤٦]

أنا إن قدر الإله مماتي
أنا تاجُ العلاء في مفرق الشر
ما رماني رام وراح سليمًا
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي
ق وذُرّاتُهُ فرائدُ عِقدي
من قديم عناية الله جندي

ثم يلتفت لمجمع الضمير العالمي، فيخاطب الأمم المتحدة؛ لتدخل بثقلها في نصرة المظلوم،

[٤٣] انظر: أندرو إدجارد، وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات، ترجمة هناء الجوهري، ط الثانية، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠١٤م، ص ٢٢٩ .

[٤٤] الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، ط ٩، دار المعارف القاهرة، ت د.ص١٠٢.

[٤٥] حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية: هارون الحلو، ص٢

[٤٦] الديوان، ٢/ ٩٠ ومابعدها.

وردع الظالم وينبهها إلى انعكاس الأوضاع وقلب المفاهيم .[٤٧]

أمن العدل أنهم يردون الـ

من الحق أنهم يطلقون الـ

ماء صفوًا وأن يكدر وُرِدِي

أسد منهم وأن تقيد أسدي

ويجيب بروح عاشقة للوطن، وقلب يقدس تراب مصر يحفز همم الشباب ويشجعهم:[٤٨]

نظر الله لي فارشد أبنا

إنما الحق قوة من قوى الدَّيْ

ئي فشدوا إلى العلا أي شد

يَان أمضَى من كل أبيض هندي

وفي مقام المباهاة والاستشهاد بالمجد السالف، والحضارة العتيدة، وكأنّه يلزم الأعداء الحجة، ويقهرهم بالسبق في ميادين المعرفة، في هذا المقام يذكر بالتراث الخالد والشاهد على تصميم هذا الشعب في بلوغ الغاية والجهود الجبارة التي وسعت الفنون حتى رسخت حضارة عريقة فيقول:[٤٩]

وقف الخلق ينظرون جميعًا

وبُناةُ الأهرام في سالفِ الدهـ

كيف أبني قواعد المجد وحدي

ر كفوني الكلام عند التحدّي

إن عروبته الخالصة، وقوميته العميقة لم تكن جميعًا لتدع له في مجال الجد بقية من عبث أو لهو، ومن هنا كان حافظ شاعر الوطنية في عصره غير مدافع، وكانت عاطفته طاغية بتلك الترنيمات الخالدة.

لقد كان يدافع عن وطنه، وعن عروبته بالقدر الذي يسمح له بالحجاج والقراع، وقد تلون تاريخ مصر بهذه اللمحات الصادقة التي تبهر العالم، حيث يتطلع إلى شاعر مصر وهو يكتب الأحداث الكبرى، ويوقع بأنغام شعبه، وهي حبيسه في صدر أمته؛ خشية بطش المستعمر وجبروته. كان حافظ إبراهيم وقّاد القريحة يصول ويجول في ميدان الوطنية، تطاوعه خاطرته ويحس بحب الوطن يلامس ويخالط شغاف قلبه، فيرسل تراتيل التقديس حين تتاح له الفرصة ويأسف لحال تراث بلاده فيقول في لمحة متحسرة، وأنّة متوجعة ينبه إلى الفرق بين اهتمام الشرق والغرب بتراثيهما:

لو أن أمثال مينا

بنوا عليها وخطّوا

في الغرب أو رمسيس

حظائر التقديس

كان حافظ ابراهيم يملك الأساس القوى، والسند الذي يرتكز عليه؛ ليجعل شعره كله ثرًا وخصبًا بثقافة عميقة، فهو وطنيّ من الطراز الأول، وفي مضمارها لا يجارى، وهو مصريٌّ يذوب حبًّا فيها وعشقًا.

ثم هو بعد ذلك عربي يحزن إذا مس العروبة طائفٌ من الشر، ويقف في وجه الظلم والعدوان: يدعو، ويصرخ، ويحفز ويطالب العرب بأن ينتبهوا لما يُكَادُ لهم في الخفاء وما يحيكه الأعداء من دسائس. وهو ابن بيئته، يتفاعل مع كل ما يقع عليه نظره، وهو الترجمان الصادق لكل

[٤٧] المصدر السابق.

[٤٨] المصدر السابق.

[٤٩] الديوان، ٨٩/٢.

ما عاصره في مختلف جوانب الحياة، وقبل ذلك هو الصادق في عرض حياته الخاصة، إن لم يكن تصريحًا فهو تلميح أقرب إلى الظهور والوضوح بحيث يمكننا أن نستخلص حياته، ونجلي خافيها من شعره. وهو الشاعر المسلم الذي يعتز بإسلامه، ويعده المرتكز السامق الذي يستلهم منه القوة ويستمدُّ منه الإلهام، ويملك عليه كل مشاعره وأحاسيسه. فما دفاعه عن العرب والعروبة وأرض الكنانة إلا أولى خطواته التي بها يصدُّ المعتدين على الدين، ويَذُبُّ عن معتقده. فما استنفاره لجند الله المخلصين بأن يأخذوا حذرهم من مكائد المستعمرين إلا شاهد على تغلغل هذا الدين الحنيف وتملُّكه كيانه.

ويتأكد في نفسه أن بقاء الدين والعرب والأمة العربية جميعًا رهن ببقاء اللغة التي هي عماد وجودها، وأساس عظمتها، وسرّ حفاظها على مقوماتها، وأنها لسان الرسول الكريم – صلّى الله عليه وسلّم– معيار التفاضل والتمايز، وصلب الشريعة ومحتوى المنهج الهادئ، لذا نجد نفسه تنفطر حزنًا على ذهاب البعض مغرمين بلغات الغرب، ومهملين لغتهم العربية، فيرفع عقيرته داعيًا إلى التمسك بها، والحفاظ عليها وإلا فعلى هذه الأمة السلام .

وبعد العرض السريع المتقدم لروافد الثقافة عند شاعرنا، سيعرض البحث صورًا من لوحاته الشعرية التي تعبر عن كل رافد منها خير تعبير. والشاعر في مجال استشهاده بالحب الجامح لمصر أخذ يحيي نماذج بارزة آنذاك، أمثال: سعد زغلول فيحذره من ختل الإنجليز وخداعهم، فهم قوم لا يحذقون في غير هذا الفن. فقد خبرهم في السودان وهو يعمل معهم وذاق من كيدهم ودسائسهم حتى عبّ ونهل منها، وسياستهم ذات وجوه متعددة فهم لا يعملون إلا لفرقة أبناء الوطن وبث أسباب التناحر والتقاتل يقول:[٥٠]

الشعب يدعو الله يا زغلول
فاوِض فخلفك أمَّةٌ قد أقسمت
لا تقـــــرب التـاميز واحذر وِردَهُ
الكيد ممزوج بأصفى مائهِ
ولهم أحابيل إذا ألقوا بها
فاحذر سياستهم وكن في يقظةٍ
إن مثَّلوا فدعِ الخيال فإنّما
الشبرُ في عُرف السياسة فرسخٌ
ولكُلِّ لفظٍ في المعاجمِ عندهُم
أن يستقلَّ على يديك النيلُ
ألا تنام وفي البلاد دخيلُ
مهما بدا لك أنّه معسول
والختل فيه مذوب مصقول
قنصوا النُهى فأسيرهم مخبول
سعدِيَّةٍ إن السياسة غولُ
عند الحقيقة يسقط التمثيل
واليومُ في فلك السياسة جيلُ
معنىً يُقالُ بأنّهُ معقول

" قد كان حافظ ضابطًا في الجيش، فهو عليم بخفايا أمور الإنجليز، وأسرار سياستهم وما افتنوا فيه من وسائل وألاعيب، فكان حدسه وظنه

[٥٠] الديوان، ١/١١٠.

بهم في تقرير يسوقه بوضوح وجلاء أنهم قوم ناكثون للعهود مضيعون لها"[٥١] ويأسى على حق الوطن في جلاء الغاصب عنه. ويقول: إنهم ماكثون في أرضنا إلى يوم النشور، وهو يرمي من وراء ذلك إلى إعلان الجهاد الدائم ضدهم والثورة عليهم، وألا يلقي السلاح إلا بعد جلائهم فيقول:[٥٢]

وأكبر ظني أن يوم جلائهم
أرى مصر والسودان والهند واحدًا
إذا غاضت الأمواهُ من كل مُزبِدِ
وعاد زمان السمهري وربِّهِ
هناك اِذكُرا يوم الجلاء ونبّها
ويوم نشور الخلق مقترنان
بها اللُردُ الفيكُنتُ يستبقان
وخرَّت بروج الرجم للحدثان
وحُكّمَ في الهيجاء كلُّ يماني
نيامًا عليهم يندبُ الهرمانِ

وتملي عليه وطنيته أن يخاطب الأسرة المالكة، ويرسم بريشة الفنان لوحه بارعة، يضفي عليها من صريح مصريته الألوان والظلال والملامح، ويوضح الخطوط والمعالم؛ لتخرج الصورة بمرئياتها على القلوب والنواظر. يخاطب عميد الدولة المتسلطة " إنجلترا " مشيرًا إلى عهد إسماعيل:[٥٣]

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبت
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى
أعِد عهد إسماعيل جلدًا وسُخرةً
عملتُم على عزِّ الجمادِ وذُلِّنا
حواشيهِ حتى بات ظُلمًا منظَّمًا
وأن أصبح المصريُّ حُرًّا منَّعما
فإني رأيتُ المنَّ أنكى وآلما
فأغليتُمُ طينًا وأرخصتُمُ دما

وكذلك يوجّه النداء إلى عميد السياسة الباغية في مصر "مندوبهم السامي"[٥٤]

ألم تلمح دموع الناس تجري
ألم تخبر بني التاميز عنا
بأنا قد لمسنا الغدر لمسا
كشفنا عن نواياكم فلستم
من البلوى ألم تسمع أنينا
وقد بعثوك مندوبًا أمينا
وأصبح ظننا فيكم يقينا
وإن برح الخفاء محايدينا

وهو عربي يعتز بعروبته، ويوظف أشعاره التي نظّمها في التهاني أو المدح ليخدم الغرض القومي، أو يتناول موضوعًا اجتماعيًا أو دينيًا، ثم يضمنه إحساسه ومشاعره نحو عروبته.

يهنئ صديقًا له بإمارة الحج فلا ينسَ أن يضمن شعره الهاتف الخفي المستكن في نفسه، فينشد وهو يحي واصف غالي:[٥٥]

غرست من زهرات الشرق طائفة
بالأمس كان لها شرق تضوع به
في أرض هيجو فجاءت طُرفة الجاني
واليوم صار لها بالغرب شرقان

---

[٥١] حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية، ص٨٧.
[٥٢] الديوان، ٢/٥-٦
[٥٣] الديوان، ٢/ ٢٥-٢٦
[٥٤] الديوان، ١٠٦/٢
[٥٥] الديوان، ٦٤/١.

وفي هذه القصيدة يرد حافظ على ما قاله الفرنسيون، ودعواهم من قصور الأدب العربي عن استيعاب فنون الشعر فيقول: [٥٦]

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة
اِنْحَنَى على الأدب الشرقي مفتريًا
ظن الحقيقة في الأشعار تنقصنا
ولو رأى " ابن جريـــح" في قصـــائده
من البراهين فلت قول "رينان"
عليه ما شاء من زور وبهتان
واللفظ والقصد والتصوير في آن
لقال آمنت في سري وإعلاني

لم يسيطر على لبّه إلا ذلك الحب الطاغي، والتعشق لعروبته ووطنه، فهو معه في أفراحه وهو معه في شدائده، استمع إليه هو يردد مقالته في تفنيد تخرصات الإنجليز، ودعاويهم الكاذبة مقويًا عزيمة الشعب، رابطًا على قلبه:[٥٧]

فديناك يا شرق لا تجزعن
فكم محنةٍ أعقبت محنةً
فلا يُيئسنَّك قيلُ العداةُ
إذا اليوم ولّى فراقِب غدا
وولّت سراعًا كرجع الصدى
وإن كان قيلًا كحزّ المُدى

وينبّه أمة الشرق، ويفضح نية الغرب في طمعهم الدائب، والسعي لالتهام الأمة، واستعمار الوطن:[٥٨]

فيا شرق إن الغرب إن لانَ أو قسا
فخف بأسَها في الرأس والرأس يصطلي
ففيه من الصهباء طبعٌ مذوَّبُ
وخف ضعفَها في الكأس والكأس تطرُبُ
ويا غرب إن الدهرَ يطفو بأهله
أراك مقرَّ الطامعين كأنّما
ويطويه تيار القضاء فيرسُبُ
على كل عرش من عروشك أشعبُ

والشاعر يصور بكل الصدق كل ما يحيط به من مظاهر الحياة في شتى، جوانبها بادئًا بنفسه وكل من له صلة به، وتتسع دائرة التفاعل؛ لتحيط بعلاقاته المتعددة مع أصدقائه وأنداده من الشعراء، وإن كانت تلك العلاقات يمكن أن تُسمى بأنها خاصة إلا أن وشيجه القربى بينه وبين الشعب الذي هو أحد أفراده كانت قوية إلى الحد الذي يعدُّ به الشاعر لسانهم المعبر عنهم، وكأنّما وَسِع في جسده أرواح الأمة، ولعل نشأته كأغلب أفراد الشعب، أو القطاع الكبير منه على البؤس والفقر والحاجة شدّت من وثاق العُرى بينهما، ورباط الصلة والوشيجة:[٥٩]

ودِدتُ لو طرحوا بي يوم جئتُهُمُ
إني احتسبتُ شبابًا بِتُّ أُنفِقُهُ
كم هِمتُ في البيدِ والآرامُ قائلةٌ
إذا نطقتُ فقاعُ السجنِ مُتَّكَأٌ

في مسبحِ الحوت أو في مَسرَحِ العطبِ
وعزمةً شابَتِ الدُينا ولم تَشِبِ

[٥٦] المصدر السابق.
[٥٧] الديوان،١/٢٦١.
[٥٨] الديولن،٢/١٩.
[٥٩] الديوان،٢/١١٧.

والشمسُ ترمي أديم الأرض باللهبِ
وإن سكتُّ فإنَّ النفسَ لم تَطِبِ

نجد الشاعر يترجم عن إحساس الشعب، ويصور هذا الإحساس أبلغ تصوير عندما يتناول حادثة دنشواي ويجسد البلاء الذي حلّ بالوطن، ويتخذ من الحادثة ذريعة الهجوم الشرس على العدو المغتصب، ويجند كل طاقاته الشعرية وإمكاناته في تسجيل هذا الحادث البشع، والجور الظالم، ويؤرخ لخسة الاستعمار واحتقارهم وامتهانهم لأبناء الأمم الأخرى:[٦٠]

أو كلما باح الحزين بأنّةٍ
رفقا عميد الدولتين بأمة
في دنشواي وأنت عنَّا غائبٌ
حسبوا النفوس من الحمام بديلة
نُكِبوا وأقفرتِ المنازلُ بعدهُم
خلّيتَهُم والقاسطونَ بمرصدٍ
جُلِدوا ولو منّيتَهُم لتعلَّقوا
شُنِقوا ولو مُنِحوا الخيارَ لأهَّلوا
والمستشارُ مُكاثرٌ برجالِهِ
يختالُ في أنحائها مُتبسِّمًا
أمست إلى معنى التعصب تنسبُ
ضاق الرجاءُ بها وضاقَ المذهب
لعب القضاء بنا وعز المهرب
فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
لو كنت حاضرَ أمرهِمِ لم يُنكبوا
وسياطُهُم وحبالُهُم تتأهّبُ
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
بِلظى سياط الجالدين ورحّبوا
ومعاجِزٌ ومُناجِزٌ ومُحَزِّبُ
والدمعُ حول رِكابِهِ يتصبَّبُ

كان حافظٌ على منابر القاهرة، وفي حشود الشباب يستنهض الهمم، ويستثير الخواطر، ويوقد نار الوطنية، ويؤجج مشاعل الحرية إثر حادث دنشواي، وشنق الفلاحين وجلدهم، ويرى حافظ أن الحادث يجب أن يكون بداية صحوة كبرى، وثورة عارمة لا تهدأ أبدًا ولا تنطفئ شعلتها:[٦١]

قتيل الشمس أورثنا حياة
فليت كرومر قد دام فينا
ويتحف مصر آنًا بعد آنٍ
لننزع هذه الأكفان عنا
وأيقظ هاجع القوم الرقود
يطوق بالسلاسل كل جيد
بمجلود ومقتول شهيد
ونُبْعَثُ في العوالم من جديد

ويعد حافظ أحد الذين كانت لهم القيادة والبطولة في إيقاظ مصر، ومجاهدة المستعمرين والصبر على أذاهم في السودان، ولذا نجده يستغل موضوع الساعة، وحديث الوقت، وجريمة العصر؛ ليستخلص من هذه المصيبة حقوق الشعب، لقد اصطنع بعض أساليب السياسيين وهو يعيش معهم:[٦٢]

أيُّها القائمون بالأمر فينا
خفّضِوا جيشكُم وناموا هنيئا

[٦٠] الديوان، ٢/ ٢٣ومابعدها.

[٦١] الديوان، ٢/٣٣ومابعدها.

[٦٢] الديوان، ٢/٢٠.

هل نسيتُم ولاءَنا والودادا ؟ !
وابتغوا صيدَكُم وجوبوا البلادا

ولا يخفى ما في البيتين من تعريض موجع لقومه، وتحسّر دفين لما آل إليه أمر بلاده، ويشير إلى الفقر الذي يرسف فيه الشعب:[٦٣]

إنما نحن والحمام سواء
لم تغادر أطواقنا الأجيادا

ويشير إلى قتيل الشمس **بقوله** :[٦٤]

لا تُقِيدُوا من أمةٍ بقتيلٍ
صادت الشمسُ نفسَه حين صادا

ثم يثور ويقول:[٦٥]

ليت شعري أتلك محكمةُ التفتيـ
ـش عادت أم عهدُ نيرون عادا

ويبلغ ذروة البيان في التهكم والسخرية بهم حين ينشد:[٦٦]

كيف يحلو من القويّ النّتشفّي
إنها مُثْلَةٌ تشُفُّ عن الغيـ
ـظ ولسنا لغيظكم أنداد
من ضعفٍ ألقى إليه القيادا

لقد سكب الشاعر دمعه على الحدث الخطير؛ عله بها يستثير بني وطنه، ويفتح أعينهم على الخطب الجسيم الذي وقع أمام أعينهم، وينبّه هذا الشعب إلى معرفة أعدائه الذين لا يملك الشعب في مقارعتهم إلا النوم حينذاك:[٦٧]

أمة النيلِ أَكْبَرَتْ أن تُعادي
ليس فيها إلا كلامٌ وإلّا
من رماها وأشفقت أن تُعادَى
حسرةٌ بعد حسرةٍ تتهادى

وهو في هذا الجو المكفهر جو السياسة المتسلط، ضد الشعب الضعيف المتزعزع يعيب من بني وطنه عملاء المستعمر في شخص ذلك المدعي العمومي، بل ويصرخ فيه مخاطبًا مصر:[٦٨]

لا جرى النيل في نواحيكِ يا مصر
أنتِ أنبتِّ ذلك النبتَ يا مصر
ولا جادكِ الحيا حيثُ جادا
فأضحى عليك شوكًا قتادا

لا يمل الشاعر من رسم صورة مصر ملتهبة الأحشاء، مضطربة من الغضب ترسل دمعة الحزن على شهدائها. فإذا ما ذهب معتمد بريطاني وجاء آخر وكاد الناس ينسون الحادث البشع، يتخذ الشاعر منه مطية العتب واللوم، ثم يذّكر قومه به، ويفضح أكاذيب المعتمد عندما يرفع تقاريره منقولاً عن الشعب مندداً به:[٦٩]

رفقا عميد الدولتين بأمة
إن أرهقوا صيّادكم فلعلّهم
ولرُبَّما ضنّ الفقير بقوتهِ
ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
للقوتِ لا للمسلمين تعصَّبوا
وسخا بمهجتِهِ على من يَغصِبُ

---

[٦٣] المصدر السابق.
[٦٤] المصدر السابق
[٦٥] المصدر السابق.
[٦٦] المصدر السابق.
[٦٧] الديوان، ٢/٢٠.
[٦٨] الديوان،٢/٢٢.
[٦٩] الديوان، ٢/٢٣.

ويتصعد الأسى في نفسه وتهيجه الذكريات، فيواصل وصف الفاجعة:[٧٠]

موتان: هذا عاجلٌ متنمِّرٌ
طاحوا بأربعةٍ فأردوا خامسًا
حُبٌّ يحاولُ غرسهُ في أنفسٍ
يرنو وهذا آجلٌ يترقبُ
هو خيرُ ما يرجو العميدُ ويطلُبُ
يُجنَى بمغرِسِها الثناءُ الطيِّبُ

وإذا تجلت معايشة الشاعر للشعب، وتعبيره عنه إثر حادث دنشواي، فإنه كان أكثر التصاقًا وأعمق حين يستدر عاطفة الناس القادرين للتبرعات، ولا تكاد تفوته ندوة أو حفل يقام من أجل عمل خيري إلا وشاعرنا مدفوع بحسه الرقيق؛ ليتصدر قائمة المنشدين يضرب على أوتار القلوب؛ حتى يُجْزِلَ السامعون العطاء، ولقد كثرت عنده قصائد الإشادة بالذين يقومون بالأعمال الخيرية، أو يدعون إلى تأسيس جمعيات للغرض ذاته، وخاصة في المرحلة الثالثة من حياته، فقد أسهم بجهد كبري في إنشاء دار إيواء اليتامى، واستعطف الأغنياء حتى يساعدوا الفقراء والمحتاجين يقول:[٧١]

أيُّها الرافلون في حلل الوشـ
إن فوق العراءِ قومًا جياعًا
قد شهِدنا بالأمس في مصر عُرسًا
بات فيه المُنعَّمون بليلٍ
ي يجرُّون للذُّيول افتخارا
يتوارون ذِلةً وانكسارا
ملأ العين والفؤادَ ابتهارا
أخجل الصُّبحَ حُسْنُه فتوارى

والعاطفة السامية للشاعر لا تتأثر فقط بالكوارث التي حلت بوطنه، بل يتفاعل عندما يبلغ سمعه أن مصيبة حلت ببقعة من الأرض مهما كانت بعيدة، فمشاعر الناس لا تعرف الفواصل ولا تُحدُّ بحدود. يقع زلزال "مِسّينا" المدمر عام ١٩٠٨ م فيصف مشاهد الرعب ويصورها بريشة مقتدرة؛ حتى تأخذ بأحاسيس البشر ويتعاطفوا معهم :[٧٢]

ما (لِمِسّينَ) عوجلت في صباها
خُسِفَتْ، ثم أُغْرِقَت، ثم بَادَت
فهُنَا الموتُ أسودُ اللونِ جَوْنٌ
ودعاها من الردى داعيان
قُضِيَ الأمر كله في ثواني
وهنا الموت أحمرُ اللون قاني

ثم يصف ما يتعرض له الطفل والفتاة وذهول الأبوة في تلك الأهوال الرهيبة:[٧٣]

رُبَّ طفل قد ساخ في باطن الأر
وفتاة هيفاء تُشوى على الجمـ
وأب ذاهل إلى النار يمشي
باحثًا عن بناته وبنيهِ
تأكل النار منه، لا هو ناجٍ
غصَّتِ الأرض، أُتْخِمُ البحرُ مما
ض ينادي: أمي! أبي؟ أدركاني
ر تعاني من حرِّهِ ما تعاني
مستميتًا تمتدُّ منه اليدانِ

[٧٠] المصدر السابق.
[٧١] الديوان، ١/٢٥١.
[٧٢] الديوان، ١/٢١٦ ومابعدها. و(مسينا) بلد بجنوب إيطاليا .
[٧٣] المصدر السابق.

مسرعَ الخطوِ مستطير الجنان
من لظاها.. ولا اللظى عنه واني
طوياه من هذه الأبدانِ

وفي القصيدة السابقة نلمح العاطفة المترعة بالحزن واللوعة والأسى، مع مقدرة فنه على تجسيد المواقف، والمناظر المفزعة.

ولا ينسَ الشاعر في غمرة الأحداث، ومعترك الحياة أن يسدي من أبوته الحانية وتجارب السنين النصائح للناشئة، ويُؤَمل فيهم مستقبل هذا الوطن كما أدلى بدلوه في كل القضايا التي عاصرها، فهو يقف موقفًا وسطًا عندما أثيرت قضية المرأة. فيقول:[٧٤]

من لي بتربية النساء فإنها
الأم مدرسة إذا أعددتها
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
يفعلن أفعال الرجال لواهيًا
في دورهن شؤونهن كثيرة
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
ربّوا البنات على الفضيلة إنها
في الشرق علة ذلك الإخفاق
أعددت شعبًا طيب الأعراق
بين الرجال يَجُلْنَ في الأسواق
عن واجبات نواعس الأحداق
كشؤون رب السيف والمِزْرَاق
في الحجب والتضييق والإرهاق
فالشر في التقييد والإطلاق
في الموقفين لهن خير وَثَاق

فهو من أنصار الفضيلة، ودعاة الأخلاق والمتمسكين بأهداب السلوك والعادات والتقاليد الإسلامية. وكم كان موقفه حازمًا من المستعمرين، عندما يؤولون كل بادرة ثورة عليهم، بأنها تعصّب من المسلمين يقول :[٧٥]

أو كلما باح الحزين بأَنَّةٍ
أمست إلى معنى التعصب تُنْسَبُ

وكان الشاعر مسلمًا مؤمنا بربه، وقد جرّ عليه هذا الاعتقاد المؤمن والتدين الواضح غضب قائد الجيش عليه في السودان، فيسجل عليه الشاعر تعصبه وعدائه للمسلمين حين يقول:[٧٦]

لحى الله عهد القاسطين الذي به
إذا شئتَ أن تلقى السعادة بينهم
تهدَّم من بنياننا ما تهدَّما
فلا تكُ مصريًّا ولا تكُ مُسلِما

وقدرة الخالق ومشيئته فوق الجميع، فإذا أراد الله شيئًا إنما يقول له كن فيكون، يقول :[٧٧]

إذا الله أحيا أمة لن يرُدَّها
إلى الموت قهّارٌ ولا متجبّرُ

ومن نفس عامرة بالإيمان يسدي النصح للعقلاء، ويرغبهم في أجر المثوبة، وجزاء رب العالمين فيدعو إلى الإحسان والعطف على الفقراء:[٧٨]

[٧٤] الديوان، ١/ ٢٨٢.
[٧٥] الديوان، ٢/٢٣.
[٧٦] الديوان، ٢/١١٤.
[٧٧] الديوان، ٢/ ٤١.
[٧٨] الديوان، ١/٢٧٨.

خيرُ الصنائع في الأنامِ صنيعةٌ ضعوا القلوب أساسًا لا أقول لكم
وإذا النوال أتى ولم يُهرق له وابنوا بأكبادكم سورًا لها وَدَعوا
من جاد من بعد السؤالِ فإنّه لا تقنطوا إن قرأتم ما يُزَوِّقُه
إني أرى فقراءكم في حاجةٍ ضعوا النُّضار فإنّي أُصْغِرُ الذَّهبا
والمحسنون لهم على إحسانهم قيلَ العدُوّ فإنّي أعرِف السَّببا
وجزاءُ ربِّ المحسنين يَجِلُّ عن ذاك العميد ويرميكم به غضبا
تنبو بحامِلِها عن الإذلال ويقول معبرًا عن أواصر الصلات بين أبناء
ماءُ الوجوهِ فذاك خيرُ نوالِ العروبة:[٨١]
وهو الجوادُ يُعدُّ في الُبخّال لِمصرَ أم لربوعِ الشأمِ تنتسِبُ
لو تعلمون لقائلٍ فَعَّال أمُّ اللغات غداة الفخرِ أمُّهُما
يوم الإثابة عشرةُ الأمثال أيرغبان عن الحُسنى وبينهما
عدٍّ وعن وزنٍ وعن مكيالِ إذا أَلمَّت بوادي النيل نازلةٌ
ويرى ذروة اليقظة، وقمة التحرر في أن هذي يدي عن بني مصر تصافحكم
تنشأ جامعة تكون الفرصة الكبرى لخلق الشباب فما الكنانةُ إلا الشأم عاج على
وبناء الرجال، فيقول:[٧٩] هنا العُلا وهناك المجدُ والحسبُ
ولا حياة لكم إلا بجامعةٍ وإن سألت عن الآباء فالعربُ
تبني الرجال وتبني كل شاهقةٍ في رائعاتِ المعالي ذلك النَّسبُ ؟
تكون أمًّا لطلاب العلا وأبَا باتت لها راسياتُ الشأم تضطربُ
من المعالي وتبني العزَّ والغلبا فصافحوها تُصافح نفسها العربُ
وهو لا يساهم في مشروع اجتماعي، وإنما ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ
يدعو إلى بناء وطني، وإرساء دعائم القوة وخلق ويبلغ الاعتزاز بالعروبة مداه متمثلاً في
الرجال، وهذا لا يكون بإلقاء الكلمات، ثم جمع تعظيم الشاعر للغته العربية، ولما أحسّ من بعض
الدنانير والدراهم، لا ولكنه يريد أن تتكتل القلوب، المستعربين إهمالهم للغتهم العربية، وتمسّحهم بل
وتتكاثف الجهود من أجل بقاء مصر شامخة ضد ومباهاتهم بلغات الغرب أنشأ قصيدته يريد بها
العدو: [٨٠] معشر الكتّاب، وإن كان بدأها تحت عنوان (اللغة

[٧٩] الديوان، ٢/٢٧٢ ومابعدها.

[٨٠] المصدر السابق.

[٨١] الديوان، ٢/٢٦٨ ومابعدها.

العربية تنعي حظها بين أهلها) يقول في بعض أبياتها:[٨٢]

وسعت كتاب الله لفظًا وغايةً
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
أيُطربكم من جانب الغرب ناعبٌ
أيهجرني قومي –عفا الله عنهم–
سرتْ لُوثةُ الإفرنجِ فيها كما سرى
إلى معشر الكتاب والجمع حافلٌ
فإما حياة تبعثُ الميتَ في البلى
وإمّا مماتٌ لا قيامة بعدهُ
وما ضقتُ عن آيٍ به وعظاتِ
وتنسيق أسماء لمخترعات؟
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
ينادي بوادي في ربيع حياتي
إلى لغة لم تتصل برواة
لعاب الأفاعي في مسيلِ فراتِ
بسطتُ رجائي بعد بسط شكاتي
وتُنبتُ في تلك الرُّمُوسِ رفاتي
مماتٌ لعمري لم يُقس بمماتِ

خاتمــة:

وفي الختام يخلص البحث إلى أبرز النتائج التي وصل إليها، يذكرها مجملة:

كان موقف الشعر حافظ إبراهيم من كل القضايا التي عاصرها موقفًا إيجابيًا، ساهم فيها برأيه وأدلى بدلوه. والقارئ لديوانه بأجزائه الثلاثة، سوف يجد شاعرًا متنوع الاتجاهات والمضامين، فهو دؤوب السعي، كثير النشاط، يَهُبُّ مدافعًا في الصفوف الأولى عن وطنه، ومناصرًا لقضايا عروبته. فإذا ما لمح حفلاً، أو سمع عن ندوة أسرع الخطى، ونازل الشعراء، واحتل مكانة بينهم وأرسل قصائده الغر تأخذ بالألباب وتأسر الأفئدة. كما كان الشاعر متجاوبًا لأصداء الحياة في شتى نواحيها، إذ سكب الدمعات الغزار في رثاء أصدقائه وخلانه، وبعث بالكلمات مضمنًا كل غرض خاص هدفًا أسمى وغاية كبرى ، فلا مانع أن يمدح صديقًا له في تهنئة، أو تحية لمناسبة من المناسبات، أو غرض من الأغراض، أو أن يتناول موضوعًا اجتماعيًا أو دينيًا أو قوميًا، فيضمنه إحساسه ومشاعره نحو وطنه وإن كان مقام القول مناسبته بعيدين كل البعد عن التغني بأمجاد الوطن.

لقد طرق كل الميادين التي يمكن أن يقال فيها الشعر، ودبّج فيها أروع القصائد. وقد ذكر البحث أمثلة متعددة لكثير من شعره في ميدان القومية، والمجال الاجتماعي والديني. وإذا قلنا كما

[٨٢] الديوان، ٢/ ٢٥٣ ومابعدها.

سبق توضيحه من قبل أن الثقافة ما هي إلا حالة وجدانية، أو رؤية تستمد وجودها من الدين واللغة والعبادات والبيئة لمسنا إلى أي حدٍّ كان حافظ إبراهيم يرتكز على أرض صلبة من الثقافة، أو بمعنى آخر عرفنا أنه استقى منابع شعره من روافد الثقافة ومنابتها الأصلية، فجاءت قصائده في كل جزئياتها ترجمة صادقة لحياته وبيئته ومعتقده، وللعادات التي ورثها عن ذلك التراث الضخم بكل المعاني الحسنة والمنهاج السليم.

المصادر والمراجع

- أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار وكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م.
- أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، ديوان حافظ إبراهيم، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
- أحمد الطاهر، محاضرات عن حافظ إبراهيم حياته وشعره، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، سنة ١٩٥٣.
- أندرو إدجارد، وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات، ترجمة هناء الجوهري، ط الثانية، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠١٤م.
- بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين الممالیك، ج ٣، تحقيق د. محمد محمد أمين، ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .
- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخران، ط دار المعارف، مصر، ت د .
- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، طبعة جديدة راجعها وعلّق عليها: شوقي ضيف، دار الهلال، ت د، ج ٤.
- حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه أحمد أمين وآخرين، ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٧م.
- رينه وليك وآخر، تعريب عادل سلامة، نظرية الأدب، دار المريخ، ط١، ١٩٩٢.
- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف بمصر، ١٩٦١.
- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ط ٩، دار المعارف القاهرة، ت د.
- صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوَفَيات، ج ٥، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، طبعة أولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- طه حسين: حافظ وشوقي، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٦٦.

- عباس محمود العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥.
- عبد الحميد سند الجندي، حافظ إبراهيم" شاعر النيل"، ط٤، دار المعارف القاهرة، ت د.
- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- ماهر حسن فهمي، تطور الشعر العربي الحديث، ط١، مؤسسة الرسالة، ت د.
- محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت .
- محمد هارون الحلو، حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية، ط د، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ت د.

الدوريات:

- جريدة الاخبار المصرية ، بتاريخ ٢٨ / ١١ / ١٩٨٣ م.
- آمال موسى، سوسيولوجيا الخطاب الشعري الإحيائي، ثالوث الذاكرة والتراث والهوية مجلة الفيصل، أغسطس٣١، ٢٠١٧